





مغامرات

شيرلوك هولمز

(٥)

بذور البرتقال الخمس

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩١

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.





شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلَصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (٩/١٩١٤-٥/١٩١٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٠/١٩٢١-٤/١٩٢٧) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأ في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

بـذور البرتقال الخمس

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

عندما ألقي نظرة سريعة على ملاحظاتي وتسجيلاتي لقضايا شيرلوك هولمز فيما بين عامَي ١٨٨٢ و١٨٩٠ يصدمني العدد الكبير منها الذي يحمل من الميزات الغريبة والمشوّقة ما يجعل من الصعب تحديد أيّها نختار وأيّها نترك!

على أية حال فقد اكتسب بعضُ هذه القضايا دعاية وشهرة من خلال الصحف، أمّا البعض الآخر فلم يسمح بظهور تلك الصفات المميّزة التي يتمتع صديقي بالقدر الكبير منها وتسعى الصحف لتصويرها. وبينما كان من بين هذه القضايا ما حيّر مهارات صديقي التحليلية لتبقى بدايات بلا نهايات كالقصص، فقد تم حل البعض الآخر منها جزئياً وفُسِّر فقط من خلال التخمين والتصوّر لا من خلال الدليل المنطقي المطلَق الذي كان يفضّله. وعندي من هذا النوع الأخير قضية تميّزت بأنها قضية رائعة في تفصيلاتها مذهلة في نتائجها، بالرغم من حقيقة أن بعض النقاط المتّصلة بها لم توضَّح كلياً، وربما لن توضَّح أبداً.

اشتغلنا في عام ١٨٨٧ بسلسلة طويلة من القضايا المتفاوتة في الأهمية، حيث وجدتُ بين عناويني

المدوَّنة على مدى العام تسجيلاً لمغامرة المجلس النيابي بالبرادول ومغامرة جماعة الرهبان الهواة الذين قاموا ببناء نادٍ فخم في سرداب أحد مخازن الأثاث، وأيضاً الحقائق المتعلقة بفقدان السفينة البريطانية آندرسن، والمغامرات الغريبة لعائلة غريس باترسون في جزيرة أوفا، وأخيراً قضية تسمُّم كامبِرْويل. وفي هذه القضية الأخيرة -كما تتذكرون- تمكّن شيرلوك هولمز عن طريق إعادة ملء ساعة القتيل من إثبات أنها قد مُلئت قبل ساعتين، وبذلك يكون القتيل قد أوى إلى فراشه في ذلك الوقت؛ ذلك الاستنتاج الذي كانت له أهمية كبيرة في حل تلك القضية.

كل هذه القضايا قد أكتبها لكم في وقت لاحق، لكن أياً منها لا يتميز بتلك الخصائص الرائعة لسلسلة الملابسات الغريبة التي أُمسِك بالقلم الآن لأقصّها عليكم.

* * *

في أواخر أيام شهر أيلول (سبتمبر) كانت العواصف الموسمية تهبّ بعنف غير عادي، فالرياح تزأر والأمطار تضرب بعنف على النوافذ لدرجة أنه حتى هنا في وسط لندن العظيم العريق كنا مجبَرين على الابتعاد بعقولنا في الوقت الحاضر عن نمط الحياة المألوف لملاحظة وجود قوى عظمى تصرخ بقوة

في الإنسان المحبوس خلف قضبان الحضارة كوحش مفترس في القفص!

وحين دخل المساء ازدادت العاصفة قوة وهديراً، وراحت الرياح تصرخ وتنوح عبر المدفأة كطفل صغير. جلس شيرلوك هولمز على أحد جوانب المدفأة مكتئباً يراجع فهرسة سجلاّت قضاياه، في حين كنت أنا في الجانب الآخر مستغرقاً في قراءة إحدى القصص البحرية الرائعة لكلارك رَسّل حتى خُيّل إليّ وكأن زئير العاصفة قد اختلط بالنصّ ودقّات المطر قد استطالت لتختلط مع اندفاع أمواج البحر الهائج! ولأن زوجتي كانت في زيارة لأمها فقد عدت مرة أخرى للإقامة في منزلي القديم في شارع بيكر لبضعة أيام.

صحت بدهشة وأنا أنظر إلى رفيقي قائلاً: إنه الجرس بالتأكيد! مَن عساه جاء الليلة؟! أيمكن أن يكون أحد أصدقائك؟

أجاب: ليس لي أصدقاء سواك، كما أنني لا أشجّع الزوار.

- عميل إذن؟

- لو أن الأمر كذلك فهي قضية خطيرة بلا شكّ؛ فلا شيء غير ذلك يمكن أن يدفع أحداً إلى الخروج في مثل هذا اليوم العاصف وهذه الساعة المتأخرة. ولكنني

أغلّب احتمال أن يكون أحد ضيوف صاحبة المنزل.

كان شيرلوك هولمز مخطئاً في تخمينه على أية حال، وحينما سمعنا خطوات في الممرّ ودقّات على الباب قام بمدّ ذراعه ليحوّل المصباح بعيداً عنه في اتجاه الكرسيّ الخالي الذي لا بد وأن يجلس عليه القادم الجديد، ثم قال: ادخل.

كان الداخل شاباً أنيقاً حسن الهندام في الثانية والعشرين من العمر على ما يبدو، تحمل ملامحه الطيبة والرقّة وتدل المظلة المبلّلة في يده وواقي المطر الطويل اللامع الذي يرتديه على مدى قسوة الطقس الذي جاء فيه.

نظر إليه شيرلوك هولمز بقلق تحت وهج المصباح، وكنت أستطيع رؤية شحوب وجهه وتثاقل عيونه كمن يرزح تحت وطأة قلق شديد.

قال: أنا مدين لك باعتذار...

ثم رفع نظّارته الذهبية التي توضع على الأنف إلى عينيه واستطرد قائلاً: أرجو أن لا أكون متطفلاً، وأخشى أن أكون قد أدخلت بعض آثار العاصفة والمطر إلى غرفتك الدافئة.

قال هولمز: أعطِني معطفك ومظلّتك، سنضعهما

هنا على العلاقة ليجفّا في الوقت الحاضر. لقد جئتَ من الجنوب الغربي كما أرى.

- أجل، من هورشام.



Sydney Paget 1891 رسم سدني باجيت ١٨٩١

- هذا الخليط من الطين والجير الذي أراه على أطراف أصابع قدميك مميَّز جداً.

- لقد جئت طالباً النصيحة.

- هذا أمر سهل.

- والمساعدة.

- ليست بنفس السهولة.

- لقد سمعت عنك يا سيد هولمز، أخبرني الميجور برنْدَرْغاسْت كيف أنقذته من فضيحة نادي تانكرفيل.

- آه، بالطبع، لقد اتُّهم ظلماً بالغشّ في اللعب.

- قال إنك تستطيع حل أي شيء.

- لقد بالغ في كلامه.

- وإنك لم تُهزَم قط.

- لقد هُزمت أربع مرات: ثلاث مرّات مع رجال ومرّة واحدة مع امرأة!

- ولكن هذا لا يقارَن بعدد انتصاراتك.

- فعلاً، أنا ناجح على وجه العموم.

- إذن لعلك تنجح معي.

- أرجو أن تسحب كرسيك قرب النار وتخبرني بتفصيلات قضيتك.

- ليست بالقضية العاديّة.

- كل القضايا التي تأتيني غير عادية، فأنا آخر ملاذ يلجؤون إليه حين يعجزون.

- وبالرغم من كل خبرتك يا سيدي، فأنا أشكّ في أن تكون قد سمعت بقضية أكثر غموضاً أو سلسلة من الأحداث غير المبرَّرة كالتي حدثت في عائلتي.

قال هولمز: أنت تشوّقني، بربك أخبرني بالحقائق الأساسية من البداية، وبعد ذلك سأسأل عن التفصيلات التي ستبدو لي مهمّة.

سحب الشابّ الكرسي وقرّب قدميه المبلّلتين ناحية اللهب ثم قال: اسمي جون أوبِنْشو، وليست لي علاقة مباشرة بهذه القضية الفظيعة كما أعتقد. إنه موضوع موروث، ولذلك يجب أن أعود بك إلى بداية الأمر لكي أعطيك فكرة عن الحقائق. يجب أن تعلم أن جدّي كان عنده ابنان، عمّي إلياس ووالدي جوزيف، وقد امتلك أبي مصنعاً صغيراً في كوفِنْتري حيث قام بتوسعته وقت اختراع الدرّاجات الهوائية،

وكان صاحبَ براءة اختراع عجلة أوبنشو الغير القابلة للكسر، وقد لاقى عمله هذا نجاحاً كبيراً مما سمح له ببيعه والتقاعد مع دخل كبير.

أما عمّي إلياس فقد هاجر إلى أمريكا وهو شابّ صغير وعمل مزارعاً في فلوريدا حيث أبلى بلاء حسناً، كما حارب في جيش جاكسون حين اندلعت الحرب، ومن بعده جيش هود الذي وصل فيه إلى مرتبة نقيب، وحين استسلم الجنرال «لي» عاد عمّي إلى مزرعته حيث بقي ثلاثة أعوام أو أربعة، وفي نحو عام ١٨٦٩ أو ١٨٧٠ عاد إلى أوروبا حيث اشترى عزبة صغيرة في سَسِكْس بالقرب من هورشام.

لقد كسب عمّي ثروة كبيرة في الولايات المتحدة، إلاّ أنه قال إنه تركها بسبب كرهه للزنوج ورفضه لسياسة الجمهوريين التي تمدّهم بالامتيازات. كان رجلاً وحيداً، وكان عنيفاً حادّ الطباع بذيء اللسان حين يغضب، وكان ذا نزعة انطوائية، حتى إنني أشكّ في أنه قد ذهب إلى المدينة ولو مرّة واحدة طوال كل تلك السنوات التي عاشها في هورشام. كان يحيط بمنزله حديقة وحقلان أو ثلاثة، وهناك كان يزاول الرياضة، ولو أنه في أغلب الأحيان كان يقضي أسابيع طويلة في غرفته حيث يسرف في الشراب ويدخّن بشراهة ويرفض الاختلاط بالناس؛ فلم يكُن

يريد أي أصدقاء، ولا حتى أخاه.

لكنه لم يكُن يمانع في وجودي معه، بل في الحقيقة لقد شعر بميل تجاهي حيث إنني كنت ما زلت صغيراً في الثانية عشرة أو نحوها حين رآني لأول مرة، وكان ذلك في عام ١٨٧٨ بعد مرور ثمانية أعوام أو تسعة على وجوده في إنكلترا، وقد توسّل إلى أبي حتى وافق على السماح لي لأعيش معه. وكان رقيقاً معي، على طريقته، حتى إنه اعتاد لعب الطاولة والداما معي في الأوقات التي يفيق فيها من تأثير الشراب، كما جعلني مندوباً عنه في التعامل مع الخدم والتجّار؛ لذلك وحين بلغت السادسة عشرة كنت سيّداً للمنزل أحتفظ بكل المفاتيح، أذهب أينما أريد وأفعل ما أحب ما دمت لا أضايقه في عزلته.

ولكن كان هناك استثناء واحد: غرفة خشبية في العليّة مغلَقة دائماً ولا يُسمَح لي أو لأحد آخر بدخولها. وقد دفعني فضول الصغار إلى النظر من خلال ثقب المفتاح لكنني لم أرَ أكثر من مجموعة من الصناديق والحزم القديمة كما هو متوقَّع في مثل هذه الغرف.

وفي أحد أيام آذار (مارس) عام ١٨٨٣ رأيت على الطاولة أمام طبق عمي خطاباً عليه طابع بريد

أجنبي! لم يكُن شيئاً مألوفاً بالنسبة إليه أن يتسلم خطابات، حيث كانت كل الفواتير تُدفَع نقداً ولم يكن له أصدقاء من أي نوع.

قال وهو يرفع الخطاب: من الهند؟ ختم بريد بوندشيري! ماذا يمكن أن يكون هذا؟

فتحه بسرعة لتقفز خمسٌ من بذور البرتقال الصغيرة الجافّة وتقرقع على طبقه! بدأت بالضحك، ولكن الضحكة تجمّدَت على شفتَيّ حين رأيت منظر وجهه؛ فقد تدلّت شفتاه وبرزت عيناه وشحب لونه وأخذ يحملق إلى الظرف الذي ما زال يحمله بيده المرتجفة، ثم صرخ قائلاً: ك ك ك! يا إلهي، لقد أدركوني!

صحت قائلا: ماذا حدث يا عمّي؟

قال: الموت!

ثم نهض عن الطاولة وذهب إلى غرفته وتركني أرتجف من الرعب.

أخذت الظرف ورأيت كتابة بخطّ رديء بالحبر الأحمر على الجزء الداخلي للغلاف فوق الصمغ مباشرة حيث تكرر الحرف «ك» ثلاث مرات، ولم يكُن هناك شيء آخر مع البذور الخمس الجافّة! ماذا

يمكن أن يكون سبب هذا الذعر الذي أصابه؟

تركت مائدة الإفطار، وبينما كنت أصعد الدرَج قابلته نازلاً وبيده مفتاح صدئ، فأدركت أنه لا بدّ وأن يكون مفتاح العليّة، وفي اليد الأخرى كان يحمل علبة نحاسية صغيرة كالتي توضَع فيها النقود، ثم قال عمّي وهو يقسم: ليفعلوا ما يريدون... سوف أتغلب عليهم في كل الأحوال. أخبر ماري أنني سأحتاج ناراً في غرفتي اليوم، وأرسل في طلب فوردهام محامي مدينة هورشام.

نفّذت ما أمرني به، وعندما وصل المحامي طُلب مني الدخول إلى الغرفة. كانت النار تتأجج في الموقد وفيه كتلة من الرماد الأسود المنفوش كبقايا الورق المحروق، في حين كان الصندوق النحاسي مفتوحاً وفارغاً. ولمحت الصندوق ملاحِظاً بفزع أن الغطاء مطبوع عليه حرف «ك» ثلاث مرات، وهو نفس ما قرأته على الظرف في ذلك الصباح!

قال عمّي: أتمنّى أن تكون شاهداً على وصيّتي يا جون. سأترك عزبتي بكل مزاياها وكل عيوبها لأخي، أبيك، وسوف تؤول لك في نهاية الأمر بلا شكّ. إذا استطعت الاستمتاع بها في سلام فخير لك، وإذا اكتشفت أنك لا تستطيع ذلك فاتبع نصيحتي -يا بني- واتركها لألدّ أعدائك. أنا آسف لإعطائك شيئاً

على هذا القدر من التناقض، ولكنني لا أعرف إلامَ ستؤول الأمور الآن. رجاءً وقّع الأوراق حيث يشير إليك السيد فوردهام.

وقّعت الورقة كما أشار عليّ وأخذها المحامي معه. وقد تركت تلك الحادثة الفظيعة -كما قد تظنّ- أعمق الأثر في نفسي؛ فكّرت مليّاً وقلّبت الأمر على كل جوانبه في عقلي فلم أستطع استخلاص أي شيء منه، كما لم أستطع التخلّص من الشعور الغامض بالخوف الذي خلّفَته في نفسي، ولو أن ذلك الإحساس بدأ يتضاءل كلما مرّت الأسابيع ولم يحدث شيء يعكّر نمط حياتنا المعتاد، وإن كنت قد لاحظت التغيّر على عمي حيث صار يشرب أكثر من أيّ وقت مضى، كما أصبح أقلّ ميلاً إلى الاجتماع بأي كان، فكان يُمضي أكثر الوقت في غرفته محكِماً إغلاقها من الداخل، وأحياناً كان يخرج من غرفته في نوبة من نوبات الهياج تحت تأثير الشراب ويندفع خارج المنزل إلى الحديقة حاملاً معه مسدّساً وصارخاً بأنه لا يخاف أحداً وأن أحداً أيّاً كان لن يستطيع حبسه كما تُحبَس الأغنام في الحظيرة! وبعد أن تخمد شدّة النوبات كان يندفع بعنف نحو الباب ليُحكِم إغلاقه من جديد كمَن لا يستطيع تحدّي الرعب المسيطر عليه حتى الأعماق أكثر من ذلك. وكنت أرى وجهه يتصبب عرقاً غزيراً في تلك النوبات رغم برودة الجوّ!

حسناً، في النهاية (وحتى لا أطيل عليك وينفد صبرك يا سيد هولمز) فقد جاءت الليلة التي قام فيها بإحدى تلك الجولات وهو فاقد الرشد، ثم لم يعُد منها قط! وحين بحثنا عنه وجدناه وقد انكفأ على وجهه في بركة صغيرة يكسوها العشب الأخضر تقع في آخر الحديقة. لم يكُن هناك أي أثر للعنف ولم يَزِد عمق الماء عن قدمين، ولذلك فإن المحلَّفين ونظراً إلى ما عُرف عنه من غرابة الأطوار قد توصّلوا إلى أنها حالة انتحار، لكن ولأنني أعرف كم كان يجفل من مجرّد التفكير في الموت فقد واجهت صعوبة في إقناع



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

نفسي بأنه سعى لمواجهته. وعلى كل حال فقد انقضى الأمر وامتلك أبي العزبة بالإضافة إلى مبلغ أربعة عشر ألف جنيه إسترليني أضيفت إلى حسابه المصرفي.

فاطعه هولمز قائلاً: لحظة واحدة، إن روايتك يا سيدي -حسب توقعي- واحدة من أهمّ القضايا التي استمعتُ إليها. أرجو أن تخبرني بموعد استلام عمّك الخطاب وموعد انتحاره المزعوم.

- وصل الخطاب في العاشر من آذار (مارس) عام ١٨٨٣، وقد مات بعدها بسبعة أسابيع، أي في ليلة الثاني من أيار (مايو).

- شكراً، استمرّ في روايتك لو سمحت.

واصل الشابّ حديثه قائلاً: حينما انتقلت ملكية عزبة هورشام إلى أبي قام -بناء على طلبي- بفحص العليّة التي كانت مغلَقة دائماً فحصاً جيّداً، وقد وجدنا العلبة النحاسية هناك وإن كانت محتوياتها قد أُتلفت، ووجدنا على الناحية الداخلية للغطاء رقعة ورقية مكتوباً عليها الأحرف الأولى الثلاثة «ك. ك. ك.»، ثم عدّة كلمات تحتها هي «خطابات، مذكّرات، إيصالات، لائحة». وقد افترضنا أن هذه الكلمات دليل على طبيعة الأوراق التي قام عمي بإتلافها، حيث إن ما بقّى في العليّة لم يكُن له أهمية ذات شأن، بل

فقط بعض الصحف المتناثرة والمذكّرات التي تحكي حياة عمّي في أمريكا، البعض منها عن فترة الحرب تُظهِر أنه قام بأداء واجبه على أتمّ وجه واشتهر بأنه جنديّ شجاع، والبعض الآخر عن فترة إعادة إعمار الولايات الجنوبية، وكانت تتعلق بوجه عامّ بالسياسة، فقد كان له دور -على ما يبدو- في معارضة المتطفلين السياسيين الذين جاؤوا من الولايات الشمالية.

انتقل أبي للإقامة في هورشام في بداية عام ١٨٨٤، ومضى كل شيء على خير ما يرام حتى كان شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٨٥، ففي اليوم الرابع بعد احتفالات العام الجديد سمعت صيحة دهشة أطلقها أبي فيما كنا جالسَين إلى مائدة الإفطار. كان جالساً وفي إحدى يديه ظرف فُتح للتوّ وفي كفّ يده الأخرى الممدودة خمس بذور برتقال جافّة! لقد كان يسخر دائماً مني ومما أسماه بالحكاية التي لا تصدَّق عن أخيه الراحل، ولكنه بدا في تلك اللحظة خائفاً حائراً حين واجهته الظروف ذاتها.

قال أبي متلعثماً: ما معنى هذا يا جون بالله عليك؟!

شعرت بثقل في قلبي وأنا أقول: إنها «ك ك ك».

نظر داخل الظرف وصاح: إنها كذلك... ها هي

الحروف ذاتها! ولكن ما هذا المكتوب فوقها؟

اختلست النظر من فوق كتفه وقرأت: «ضع الأوراق في الساعة الشمسية».

تساءل أبي: أيّة أوراق؟ وأية ساعة شمسية؟!

قلت: الساعة الشمسية في الحديقة. لا يوجَد غيرها، أمّا الأوراق فلا بدّ أنها تلك التي أتلفها عمي قبل موته.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

قال أبي محاولاً استجماع شجاعته: هراء، إننا نعيش في بلد متحضر هنا ولا يمكن أن نتقبل عملاً صبيانياً من هذا النوع. من أين أتى هذا الخطاب؟

أجبته وأنا أنظر إلى ختم البريد: من دَنْدي.

قال أبي: يا لها من مزحة غير معقولة! ما علاقتي أنا بالساعة الشمسية والأوراق؟ لن أبالي بهذه التفاهات.

قلت: يجب أن نخبر الشرطة.

- لن أفعل شيئاً من هذا القبيل وأعرّض نفسي إلى السخرية والإزعاج.

- اسمح لي بذلك إذن.

- لا، أنا أمنعك من ذلك؛ لن أسمح بإثارة ضجّة بسبب شيء تافه كهذا الأمر.

كان من العبث الجدال معه إذ كان رجلاً عنيداً، ولكنني شعرت بنُذُر الشرّ تملأ قلبي.

بعد ذلك غادر أبي المنزل لزيارة أحد أصدقائه القدامى، وهو الميجور فريبَدي الذي كان قائداً لأحد الحصون في بورتسْداون هِلْ. ذهب إليه في اليوم الثالث بعد وصول الخطاب، وقد أسعدني ذهابه

حيث بدا لي أنه كلما بَعُد عن المنزل قل الخطر، ولكنني كنت مخطئاً في ذلك؛ ففي اليوم الثاني لغيابه تلقّيت برقية من الميجور فريبَدي يحثّني فيها على القدوم فوراً.

لقد سقط أبي في إحدى الحفر الجيرية العميقة المنتشرة في الجوار، وكان يرقد فاقداً الوعي وجمجمته مهشَّمة! وأسرعت إليه، ولكنه مات دون أن يستعيد وعيه أبداً. لقد كان عائداً -على ما يبدو- من فيرهام وقت الغسق، ولأن المنطقة كانت غريبة عليه ومحجر الجير غير مسيَّج فقد أصدر المحلَّفون قرارهم بلا تردّد باعتبار الوفاة «موتاً ناتجاً عن أسباب عرَضية». وبالرغم من أنني فحصت كل الحقائق المتعلقة بموته بعناية إلا أنني لم أستطع العثور على أي دليل يرجّح فكرة القتل، فلم يكن هناك دليل على العنف ولا آثار أقدام ولم تتمّ سرقته، ولم يشاهد أيٌّ من أهل المنطقة غرباءَ في الطريق. ولا حاجة بي إلى إخبارك أنني -ورغم كل شيء- لم أستطع أن أرتاح، فقد كنت متأكداً أن مؤامرة حقيرة قد حيكت ضدّه.

بهذه الطريقة المشؤومة حصلت على ميراثي. ربما سألتني: لماذا لم أتخلص منه؟ والإجابة أنني كنت مقتنعاً بأن مشكلاتنا كانت متعلقة بشكل ما بإحدى الوقائع التي حدثت في حياة عمّي، وأن الخطر

سيظلّ مخيّماً سواء في هذا المنزل أو في غيره.

مات والدي المسكين في كانون الثاني (يناير) عام ١٨٨٥، وقد مرّ على ذلك عامان وثمانية أشهر عشت فيها بسعادة في هورشام، وكنت قد بدأت أرجو أن تكون اللعنة قد ابتعدت عن العائلة وأنها انتهت مع نهاية الجيل الراحل، ولكن يبدو أنني قد اطمأننت مبكّراً، حيث تلقّيت صباح أمس الصدمة نفسها التي تلقّاها أبي من قبل.

أخرج الشابّ من جيب معطفه مظروفاً مجعّداً، ثم توجّه إلى الطاولة ورمى عليها خمس بذور برتقال جافّة وقال: هذا هو المظروف وختم البريد؛ لندن، القسم الشرقي. وفي داخله نفس الأحرف التي كانت في رسالة أبي الأخيرة «ك ك ك»، وبعدها «ضع الأوراق في الساعة الشمسية».

سأله هولمز: ماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئاً.

- لا شيء؟

غطّى وجهه بكفّه النحيلة الشاحبة وقال: سأقول لك الحقيقة. لقد شعرت بالعجز تماماً كما لو أنني أحد تلك الأرانب المسكينة حين يزحف إليها الثعبان، فأنا

-على ما يبدو- واقع في قبضة شرّ جامح لن تحميني منه أية احتياطات مسبَقة أو إجراءات وقائية!

صاح شيرلوك هولمز مستهجناً: يجب أن تفعل شيئاً يا رجل وإلاّ فسوف يُقضى عليك. لا وقت لديك



Sydney Paget 1891 — رسم سدني باجيت ١٨٩١

لليأس، القوّة وحدها هي التي ستنقذك.

- لقد ذهبت إلى الشرطة.

- ثم ماذا؟

- استمعوا إليّ وهم يبتسمون، وأنا مقتنع بأن المفتش قد استقرّ رأيه على أن الخطابات ما هي إلاّ مزحة وأن وفاة أقاربي هي في الحقيقة مجرّد حوادث كما قرّر المحلّفون ولا علاقة لها بالتحذيرات.

هزّ هولمز قبضتيه في الهواء وصاح: هذه حماقة غير معقولة!

- لكنهم سمحوا ببقاء شرطيّ في المنزل على أية حال.

- هل هو معك الليلة؟

- لا، فالأوامر تقضي ببقائه في المنزل.

لوّح هولمز بقبضتيه في الهواء مرة أخرى وصاح: ما الذي أتى بك إلى هنا؟ والأهمّ هو لماذا لم تأتِ إليّ في الحال؟

- لم أكُن أعرف، فاليوم فقط تحدثت مع الميجور برنْدَرْغاسْت عن مشكلاتي فنصحني بأن آتي إليك.

- لقد مضى يومان على استلامك الخطاب، وكان يجب علينا أن نتصرف قبل ذلك. أنت لا تملك دليلاً آخر -على ما أظن- غير ذلك الذي عرضته علينا. ألا توجَد لديك بعض التفصيلات الموحية التي قد تساعدنا؟

قال جون أوبنشو: شيء واحد فقط.

ثم فتّش في جيب معطفه وأخرج قطعة من الورق البالي ذي اللون الأزرق فوضعها على الطاولة قائلاً: أتذكر أنني قد لاحظت وسط الرماد -عندما أحرق عمّي الأوراق- بعض الأطراف الصغيرة التي لم تحترق، وكانت بنفس هذا اللون بالذات، وقد وجدت هذه الورقة الوحيدة على أرض غرفته، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنها واحدة من تلك الأوراق وقد طارت من بينها ونجت من التلف، ولكني لا أرى فيها ما يمكن أن يساعدنا عدا ما ذُكر فيها عن البذور. إنها تبدو كورقة من مذكّرات خاصة، أما الخط فهو خط عمّي بالتأكيد.

حرّك هولمز المصباح وانحنى كلانا على الورقة التي أظهرت حافّتُها المشرشرة أنها قد مُزِّقت من كتاب بالفعل، كان عنوانها «آذار (مارس) ١٨٦٩» وتحته كانت الملاحظات المبهَمة التالية:

الرابع: جاء هدسون، الرصيف القديم نفسه.

السابع: وُضِعت البذور لماكولي وبارامور وجون سوين من سينت أوغستين.

التاسع: غادر ماكولي.

العاشر: غادر جون سوين.

الثاني عشر: تمت زيارة بارامور، كل شيء على ما يرام.

قال هولمز وهو يطوي الورقة ويعطيها لزائرنا: شكراً، والآن يجب أن لا تضيع لحظة أخرى مهما كان السبب، فليس لدينا حتى الوقت لمناقشة ما أخبرتني به، فلتذهب إلى المنزل فوراً وتتصرف.

- ماذا عساي أن أفعل؟

- ليس أمامك إلاّ شيء واحد لتفعله ويجب أن تقوم به فوراً، ألا وهو أن تضع قطعة الورق التي عرضتَها علينا في الصندوق النحاسي الذي وصفتَه، كما يجب أن تضع ورقة تقول فيها إن كل الورق الآخر قد أحرقه عمّك وإن هذه هي الوحيدة الباقية. يجب أن تؤكّد ذلك بكلمات تقنعهم، وبعد ذلك ضع الصندوق في الساعة الشمسية كما أخبروك، هل تفهم؟

- تماماً.

- إياك أن تفكّر في الانتقام أو في أي شيء آخر من هذا القبيل في الوقت الحاضر. أظن أننا يمكن أن نحقّق ذلك بوسائلٍ قانونية، ولكن يجب أن نُتقِن خطّتنا كما فعلوا هم، إلاّ أن اهتمامنا الأول يجب أن ينصبّ الآن على إزالة الخطر الذي يتهددك، وبعد ذلك نعمد إلى توضيح الغموض ومعاقبة الأطراف المذنبة.

قال الشاب وهو ينهض ويرتدي معطفه: شكراً لك؛ لقد بعثت فيّ الحياة والأمل من جديد، وسوف أنفّذ نصيحتك بالتأكيد.

- لا تضيّع أي لحظة، واعتنِ بنفسك في الوقت الحاضر لأنني لا أشكّ في أنك مهدَّد بخطر حقيقي شديد. كيف ستعود؟

- بالقطار من محطة واترلو.

- إنها لم تبلغ التاسعة بعد وستكون الشوارع مزدحمة، ولذلك أظنّ أنك ستكون في أمان، وبالرغم من ذلك يجب أن تتوخى الحذر.

- أنا مسلَّح.

- هذا جيّد، سأبدأ العمل في قضيتك غداً.

- سأراك في هورشام إذن؟

- لا، فسرّك يكمن في لندن، وهناك سأسعى إلى حلّه.

- حسناً إذن، سأتصل بك خلال يوم أو اثنين لأبلغك بالأخبار عن الصندوق والأوراق، سأتبع نصيحتك بحذافيرها.

ثم ودّعنا وخرج.

* * *

هدَرَت الرياح في الخارج وتزايدت دقّات المطر على النافذة، وبدت هذه القصّة الغريبة الجامحة وكأنها قد جاءت إلينا من وسط عناصر الطبيعة الغاضبة لتعصف بنا كورقة طحلب بحريّ وسط العاصفة، ومن ثَم عادت لتلتحم من جديد بتلك القوى الغاضبة!

جلس شيرلوك هولمز بعض الوقت صامتاً محنيّ الرأس وعيناه مثبّتتان على وهج النار الأحمر، وبعد ذلك أشعل غليونه واعتدل في كرسيه فيما هو يراقب دوائر الدخان الزرقاء تتسابق الواحدة تلو الأخرى باتجاه السقف، وأخيراً قال: أعتقد أن هذه القضيّة هي الأخطر من بين كل قضايانا يا واطسون.

- ربما، باستثناء قضية رمز الأربعة.

- حسناً، قد أستثني تلك القضية، وإن كنت

أعتقد أن هذا المدعوّ جون أوبنشو يسير بين أخطار أعظم من تلك التي واجهت عائلة شُلْتوس.

تساءلت قائلاً: وهل شكّلت رأياً محدَّداً عن طبيعة تلك الأخطار؟

أجاب: لا شكّ عندي في طبيعة هذه الأخطار.

- ماذا تكون إذن؟ ومن هو «ك ك ك» هذا؟ ولماذا يسعى خلف تلك العائلة التعسة؟

أغلق شيرلوك هولمز عينيه واضعاً مرفقيه على ذراعَي كرسيه، وضمّ أطراف أصابعه بعضها إلى بعض وقال: المحلّل المثالي هو الذي يأخذ حقيقة واحدة بكل تفصيلاتها ويستنتج منها، ليس فقط سلسلة الأحداث المؤدّية إليها ولكن أيضاً النتائج المترتبة عليها، فكما يستطيع العالِم الطبيعي أن يصف لنا حيواناً كاملاً من دراسة عظمة واحدة، فكذلك المراقب الذي فهم تماماً حلقة واحدة من سلسلة حوادث يجب أن يكون قادراً على أن يعرض بقية الأحداث السابقة واللاحقة. إننا لم ندرك -بعد- النتائج التي يؤدّي إليها المنطق وحده، ويمكننا ونحن جلوس في المكتبة حل المشكلات التي حيّرت كل أولئك الذين سعوا وراء الحل عن طريق استخدام كل حواسّهم، ولكي نصل بفنّ التحليل المنطقي إلى أقصاه فمن الضروري على

المحلّل أن يستخدم كل الحقائق التي وصلت إليه، وهذا في حدّ ذاته يدل -كما سوف ترى بوضوح- على امتلاك كل المعرفة، تلك المعرفة التي تمثّل إنجازاً نادراً حتى في عصر التعليم المجّاني والموسوعات! ليس من المستحيل تماماً على الإنسان أن يمتلك كل المعرفة التي من المرجَّح أن تفيده في عمله، وهذا هو ما سعيت جاهداً إلى تحقيقه، وقد قمت أنت -على ما أذكر- في الأيام الأولى لصداقتنا بتحديد قدراتي بصفة دقيقة جداً.

أجبته ضاحكاً: نعم، لقد كانت وثيقة رائعة، فقد حصلت في الفلسفة وعلم الفلك والسياسة على صفر كما أذكر، وتفاوت مستواك في علم النبات، في حين كنت متعمقاً في علم طبقات الأرض لدرجة ملاحظة بقع الطين وتحديد مصدرها في نطاق خمسين ميلاً من البلدة، كما كنت غريب الأطوار في الكيمياء وغير منظَّم في علم التشريح، ومتميزاً في الأدب وسجلاّت الجريمة، ولاعب كمان وملاكماً ومبارزاً ومحامياً... تلك -كما أذكر- كانت النقاط الأساسية في دراستي لشخصيتك.

ضحك هولمز عندما سمع الجملة الأخيرة وقال: حسناً، ما أقوله الآن وما سبق أن قلته حينذاك هو أن الإنسان يجب أن يحتفظ في عقله بالأشياء

المهمّة التي يحتاجها ويضع جانباً ما بقي من أشياء في قاع مكتبته حيث يستطيع الحصول عليه متى أراد. وبالنسبة إلى القضية التي تسلّمناها الليلة فعلينا أن نحشد كل مصادرنا. أرجوك ناولني حرف الكاف في الموسوعة الأمريكية... إنها على الرف المجاور. شكراً لك، والآن دعنا نتدارس الموقف لنرى ما يمكن استنتاجه. أولاً دعنا نبدأ بافتراض أن العم

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

أوبنشو كان لديه سبب قوي لمغادرة أمريكا، فالرجال في عمره لا يغيّرون عاداتهم ويستبدلون بالمناخ الرائع لفلوريدا الحياةَ القاتمة في الريف الإنكليزي، كما أن ميله الشديد إلى الخلوة في إنكلترا يرجّح فكرة خوفه من شخص ما أو من شيء ما، ولذلك يمكن أن نضع فرضية أن «الخوف من شخص ما أو من شيء ما» هو الذي أخرجه من أمريكا، أمّا ما دعاه إلى الخوف فيمكن أن نستنتج ذلك إذا ما أخذنا في الاعتبار تلك الحروف المرعبة التي تسلّمها هو ومن بعده ورثته. هل لاحظت أختام البريد على الخطابات؟

– الأول من بوندشيري، والثاني من دَنْدي، والثالث من لندن.

– من شرق لندن... وما الذي تستنتجه من ذلك؟

– كلها موانئ بحرية، ولذلك فكاتب الخطاب كان على متن سفينة.

– ممتاز، لدينا الآن دليل. يبدو أن الكاتب كان على متن سفينة، وهذا احتمال يبدو قوياً. دعنا الآن ندرس نقطة أخرى، في حالة بوندشيري كانت سبعة أسابيع تفصل بين التهديد والتنفيذ، وبالنسبة إلى دندي كان الفاصل ثلاثة أيام أو أربعة، علامَ يدلّ هذا؟

- كانت أمامه مسافة كبيرة ليقطعها.

- ولكن تذكّر أن الخطاب قطع مسافة أطول في الوصول.

- لا أستطيع فهم هذه النقطة.

- على الأقل توصّلنا إلى افتراض أن السفينة التي جاء فيها الرجل (أو الرجال) هي سفينة شراعية. إذ يبدو أنهم يرسلون الإنذار قبل أن يبدؤوا المهمّة، ولو أنهم جاؤوا من بوندشيري بسفينة بخارية لوصلوا في نفس وقت وصول الخطاب، ولكن سبعة أسابيع انقضت في حقيقة الأمر، وأنا أعتقد أن هذه الأسابيع السبعة تمثّل الفارق في السرعة بين سفينة البريد التي يحمل الخطاب والسفينة التي جاء بها كاتبه.

- ممكن.

- بل أكثر من ذلك، إنه احتمال قوي. والآن أنت ترى مدى أهمية السرعة في هذه القضية الجديدة ولماذا ألحت على الشاب أوبنشو ليأخذ حذره، فالضربة كانت دائماً تقع في نهاية الوقت الذي يستغرقه المرسل في قطع المسافة، ولكن هذا الخطاب الأخير جاء من لندن، ولذلك لا تستطيع الاعتماد على الوقت.

صحت قائلاً: يا إلهي! وماذا يمكن أن يعني هذا التحذير القاسي؟

- من الواضح أن الأوراق التي يحملها أوبنشو لها أهمية كبيرة للشخص أو الأشخاص في السفينة، وأعتقد أنه من الواضح أنهم أكثر من واحد، فلم يكُن بمقدور شخص واحد أن ينفّذ عمليتَي قتل بهذه الطريقة التي خدعت الطبيب الشرعي والمحلّفين. لا بدّ أن الكثيرين نفّذوها، وهم أيضاً رجال يملكون التصميم والإمكانيات، فأوراقهم التي يسعون وراءها لا بدّ أن يحصلوا عليها أيّاً كان من يحملها، وبهذه الطريقة تتحول قضايا «ك ك ك» من قضايا فردية إلى علامة مميّزة لجماعة.

- ولكن لأي جماعة؟

قال شيرلوك هولمز وهو ينحني إلى الأمام ويخفض صوته: ألم تسمع قط بجماعة «كو كْلوكس كْلان»؟

- لم أسمع بها قط.

قلّب هولمز صفحات الكتاب الموجود على ركبته ثم قال: ها هو... «كو كلوكس كلان». إنه اسم مشتقّ من تشابه بينه وبين صوت إعداد البندقية للإطلاق، وهو اسم لجماعة سرّية رهيبة أسّسها بعض الجنود

الاتحاديين في الولايات الجنوبية بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وسريعاً ما شكّلت فروعاً محلّية في مختلف أرجاء البلاد حيث برزت في تنيسي ولويزيانا وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية وجورجيا وفلوريدا، وقد استخدمَت قوّتها في الأغراض السياسية، وفي المقام الأول لإرهاب الناخبين الزنوج، كما كانوا يقتلون ويطردون كل من يعارض آراءهم.

كل تلك الانتهاكات كانت تتمّ بإرسال تحذير للرجل المطلوب بطريقة غريبة، وإن كانت مميَّزة بوجه عامّ، مثل عقد من أوراق البلّوط في بعض الأماكن، أو بذور البطيخ أو البرتقال في مناطق أخرى... وعلى الضحية فور استلامه هذه العلامة أن يعلن تخلّيه عن أفكاره السابقة أو أن يغادر البلاد، ولو حاول أحدهم التحلّي بالشجاعة فالموت مصيره بلا أدنى شك، وهو غالباً ما يتم بطريقة غريبة وغير متوقَّعة. وقد كان تنظيم الجماعة من الدقّة والنظام بحيث لا يوجَد سجلّ لحالة واحدة نجحت في تحدّي هذه الجماعة وأفلتت من العقاب، ولم يفلح أي تعقّب لهذه الانتهاكات في الإرشاد عن الجُناة. وقد ازدهرت هذه المنظَّمة لبضع سنوات بالرغم من جهود الحكومة في الولايات المتحدة وجهود الطبقات العليا في المجتمع، وفي

النهاية وفي عام ١٨٦٩ انهارت الحركة فجأة رغم وجود نشاط متقطع من نفس النوع منذ ذلك التاريخ.

قال هولمز وهو يضع المجلّد: ستلاحظ أن انهيار الجماعة متزامن مع اختفاء أوبنشو من أمريكا ومعه الأوراق التي تخصّهم. قد نكون الآن أمام السبب والنتيجة، فلا عجب إذن أن هناك مَن يسعى في أثر أوبنشو وعائلته بكل حقد وإصرار، ويمكن لك أن ترى أن السجل واليوميات في هذه الأوراق قد يورّطان بعض الرجال الأوائل للجماعة في الجنوب، وأن الكثيرين منهم قد لا ينامون الليل بسهولة قبل استرجاعها.

- إذن فالصفحة التي رأيناها...

- كما يمكن أن نتوقع أن تكون، إذا ما تذكرت جيّداً فهي تنصّ على تعبيرات مثل: أُرسِلت البذور إلى «أ» و«ب» و«ج»... وهذا معناه إرسال تحذير الجماعة إليهم. وأيضاً التعقيبات التالية التي تقول إن «أ» و«ب» قد غادرا البلاد، وأخيراً أنه قد تمّت زيارة «ج» مما قد يعني -كما أخشى- أن نهايته سيئة. حسناً، أعتقد -يا دكتور- أننا أوضحنا بعض الأمور الغامضة هنا، وأظنّ أن الفرصة الوحيدة التي يملكها الشاب أوبنشو في الوقت الحالي هي تنفيذ ما طلبته منه، وبالتالي ليس

لدينا ما نقوله أو نفعله الليلة، فناولني الكمان ودعنا نحاول نسيان الطقس البائس والأحوال الأكثر بؤساً لإخواننا في الإنسانية ولو لمدّة نصف ساعة.

* * *

كان الجوّ صحواً في صباح اليوم التالي والشمس المشرقة تتسلل أشعّتُها عبر حجاب رقيق من الضباب يحيط بالمدينة العريقة، وكان شيرلوك هولمز يتناول إفطاره حين دخلت عليه فبادرني قائلاً: اعذرني لأنني لم أنتظرك، فأمامي يوم حافل بالبحث في قضية الشاب أوبنشو كما أظن.

سألته قائلاً: ما هي الخطوات التي ستتخذها؟

- هذا سيعتمد إلى حدّ كبير على نتائج تحقيقاتي الأولية، وقد أُضطرّ إلى الذهاب إلى هورشام على أية حال.

- ألن تذهب إلى هناك أولاً؟

- بل سأبدأ من المدينة. اقرع الجرس وستأتيك الخادمة بالقهوة.

وبينما كنت أنتظر القهوة رفعت الجريدة غير المفتوحة عن الطاولة وألقيت عليها نظرة سريعة لأتوقف عند عنوان بعث القشعريرة في قلبي فصحت

قائلاً: هولمز، لقد تأخرت جداً!

هتف قائلاً بانفعال: آه، لقد كنت أخشى ذلك! كيف تمّ الأمر؟

كان يتكلم بهدوء ولكن وضح أنه قد تأثر جداً. التقطت عيناي اسم أوبنشو وكان العنوان «مأساة قرب جسر واترلو»، وكان التقرير يقول:



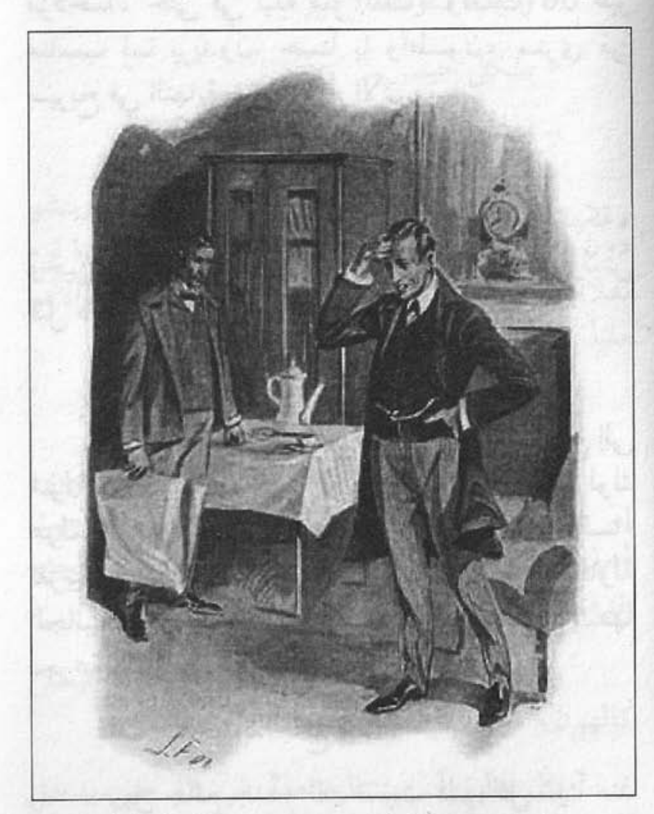
رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

بين التاسعة والعاشرة من مساء أمس كان الشرطي كوك في نوبته بالقرب من جسر واترلو حين سمع استغاثة وصوت سقوط جسم في الماء، ولكن لأن الليلة كانت مظلمة وعاصِفة وبالرغم من مساعدة بعض المارة إلاّ أن الإنقاذ كان مستحيلاً، وقد أُطلق جرس الإنذار وتمكّنوا من انتشال الجثّة بمساعدة شرطة المسطّحات المائية، وتبيّن أنها لشابّ محترم اسمه جون أوبنشو كما ظهر من المظروف الموجود في جيبه والذي يحمل أيضاً عنوانه قرب هورشام، ويُفترَض أنه كان مسرعاً ليلحق بالقطار الأخير من محطة واترلو، وفي خِضَمّ عجلته وبسبب الظلام الشديد خرج عن الطريق ومشى على حافّة بعض المهابط الصغيرة للمراكب البخارية النهرية، وحيث إنه لا يوجد أي أثر للعنف فلا شكّ أن القتيل كان ضحية حادث مؤسف، ويجب أن يلفت هذا الحادث انتباه السلطات إلى حالة المهابط الصغيرة على حافة النهر.

جلسنا بصمت لبضع دقائق وهولمز مكتئب ومتأثر كما لم أرَه من قبل، ثم قال أخيراً: هذا الأمر يجرح كبريائي يا واطسون، إنه إحساس طفيف بلا شك، ولكنه يؤذي كبريائي. لقد أصبح الأمر شخصياً الآن، وإذا أعطاني الله الصحّة فسوف أمسك بهذه

العصابة. لقد جاء إليّ طلباً للعون، وأنا أرسلته ليلقى حتفه!

ثم هبّ من مقعده وأخذ يتجول في الغرفة في هياج خارج عن السيطرة وخدّاه الشاحبان محتقنان



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

وقد أخذ يقبض يديه النحيلتين ويبسطهما في حركة عصبية، ثم قال: لا بدّ أنهم شياطين مخادعون! كيف خدعوه ليذهب إلى هناك؟ ليس المرسى في الطريق المباشر إلى المحطة، فلا بدّ إذن أن الجسر كان مزدحماً، حتى في ليلة مثل تلك، ولذلك كان غيرَ مناسب لِما يريدون. حسناً يا واطسون، سنرى مَن سيربح في النهاية... سأخرج الآن.

- ستذهب إلى الشرطة؟

- لا، سأكون أنا الشرطة؛ سأنسج الشبكة، وحين يسقطون كالذباب سأستدعي الشرطة، وليس قبل ذلك.

* * *

كنت منهمكاً في عملي طوال اليوم فلم أرجع إلى منزل شارع بيكر إلا في آخر النهار، ولم يكُن شيرلوك هولمز قد عاد بعد، حتى كانت الساعة العاشرة مساء تقريباً حين دخل شاحباً مرهَقاً وتوجّه إلى الطاولة الجانبية ليأخذ قطعة من الخبز يلوكها في تلذّذ ثم يتبعها بجرعة كبيرة من الماء.

قلت ملاحظاً: أجائع أنت؟

- بل جائع جداً، لقد نسيت فلم آكل شيئاً منذ الإفطار.

- لاشيء؟!

- ولا حتى قضمة واحدة، فلم يكُن عندي وقت لأفكّر في الأكل.

- وكيف سارت الأمور؟

- بشكل جيد.

- أتوصلت إلى دليل؟

- إنهم في قبضة يدي، لن يبقى الشاب أوبنشو دون ثأر لمدة طويلة. ما رأيك يا واطسون؟ دعنا نرم بعلامتهم الشريرة في وجوههم. لقد فكرت في الأمرَ ملياً.

- ماذا تقصد؟

أخذ برتقالة من الخزانة فقطعها نصفين، ثم ضغط عليها لتخرج البذور على الطاولة حيث أخذ خمساً منها فوضعها في مظروف، وعلى الجزء الداخلي كتب: "من «ش هـ» إلى «ج ك»".

ومن ثمّ أغلقه وكتب العنوان: «القبطان جيمس كالهون، سفينة لون ستار، سافانا، جورجيا».

قال مقهقهاً: ستنتظره هذه الرسالة حين يدخل الميناء وتحرمه النوم، وستكون نذير شؤم له كما كان

مثلها لأوبنشو من قبله.

- ومَن يكون القبطان كالهون؟

- قائد العصابة. سأنال من الآخرين أيضاً، ولكن هو أولاً.

- كيف تتبّعته إذن؟

أخرج هولمز ورقة كبيرة من جيبه مليئة بالأسماء والعناوين وقال: لقد أمضيت كل النهار أراجع السجلاّت والملفّات القديمة لشركة لويْد متتبعاً مسيرة كل مركب رسا في بوندشيري في كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) عام ١٨٨٣ ولو لوقت قصير، وقد أشارت التقارير في هذه الفترة أن ستاً وثلاثين من السفن ذات الحمولة المعتدلة قد مرّت بها، ومن بينها واحدة جذبت انتباهي فوراً هي سفينة «لون ستار» التي رغم كونها انطلقت من لندن إلاّ أن اسمها هو اسم إحدى ولايات الاتحاد.

- تكساس على ما أعتقد.

- لم أكُن واثقاً أيّها، ولكنني عرفت أن السفينة ذات أصل أمريكي.

- وماذا بعد ذلك؟

- بحثت في سجلاّت دَنْدي، وعندما وجدت

أن سفينة لون ستار كانت هناك في كانون الثاني (يناير) أصبح شكّي يقيناً، وعندها استعلمت عن السفن التي رست في لندن مؤخَّراً.

- وبعد؟

- وصلت سفينة لون ستار إلى هنا في الأسبوع الماضي. ذهبتُ بعد ذلك إلى ميناء ألبرت فوجدت أنها قد أبحرت باتجاه النهر مع المدّ الباكر هذا الصباح في طريقها للعودة إلى سافانا، فأرسلت برقية إلى غرافسند وعرفت أنها مرّت بها منذ بعض الوقت، ولأن الرياح شرقية فلا شكّ أنها الآن قد عبرت غودْوِنْز وليست بعيدة جدّاً عن جزيرة وايت.

- وماذا ستفعل إذن؟

- لقد سقط هو وصاحباه في قبضتي، فهم كما علمت الوحيدون من أصل أمريكي على متن السفينة، البقية فنلنديون، كما عرفت أن الثلاثة كانوا غائبين عن السفينة ليلة أمس، عرفت ذلك من عامل الشحن الذي كان يحمّل شحنتهم، وعند وصول سفينتهم إلى سافانا سيكون مركب البريد قد أوصل خطابي هذا، وستكون البرقية قد أبلغت الشرطة في سافانا أن هؤلاء الرجال الثلاثة مطلوبون هنا في جريمة قتل.

* * *

كثيراً ما يكون في الخطط التي يضعها الإنسان ضعف ونقص، فقاتلو جون أوبنشو لم يتسلموا قط بذور البرتقال التي كانوا سيعرفون منها أن شخصاً ماكراً وحازماً مثلهم يسعى في أثرهم.

لقد كانت العاصفة شديدة ومستمرّة في ذلك العام، وانتظرنا طويلاً سماع أي أخبار عن السفينة «لون ستار» ولكن بلا جدوى، وأخيراً عرفنا أن سارية المركب قد شوهدت في مكان بعيد في المحيط الأطلسي محطَّمةً تتأرجح وسط الأمواج وقد نُقش عليها الحرفان «ل س»، وهذا هو كل ما سنعرفه عن مصير تلك السفينة المنكوبة.

* * *

-تمّت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا
(٢) قضية هوية
(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
(٤) لغز وادي بوسكومب
(٥) بذور البرتقال الخمس
(٦) ذو الشّفة الملتوية
(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء
(٨) لغز العصابة الرقطاء
(٩) مغامرة إبهام المهندس
(١٠) مغامرة النبيل الأعزب
(١١) مغامرة تاج الزمرّد
(١٢) منزل الأشجار النحاسية

ذكريات شيرلوك هولمز

(١) ذو الغُرّة الفضية

(٢) لغز الطرد البريدي

(٣) لغز الوجه الأصفر

(٤) مغامرة موظف البورصة

(٥) سفينة «غلوريا سكوت»

(٦) وصية عائلة موسغريف

(٧) لغز بلدة ريغيت

(٨) مغامرة الرجل الأحدب

(٩) لغز المريض المقيم

(١٠) مغامرة المترجم اليوناني

(١١) وثائق المعاهدة البحرية

(١٢) المشكلة الأخيرة

5





مغامرات
شيرلوك هولمز
تأليف: آرثر كونان دويل

The Adventures of Sherlock Holmes



The Five Orange Pips



ISBN 2-1957-3317-7

